معاذ بن جبل رضي الله عنه

إن الحمد لله نحمده، ونستعينه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مُضل له ، ومن يُضلل فلا هادي له ، وأشهد أن لا إله إلَّا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾[آل عمران:١٠٢].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء:١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب:٧٠، ٧١].

أما بعد:

فإن أصدقَ الحديثِ كتابُ الله، وخيرَ الهدي هديُ محمدٍ ﷺ، وشرَّ الأمورِ محدثاتُها، وكلَّ محدثةٍ بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار.

أيها الأحبة في الله: ما زال حديثنا حول خروج معاذ بن جبل رضي الله عنه إلى اليمن للدعوة إلى الله. عن أبي موسى أن النبي ﷺ لما بعثه ومعاذاً إلى اليمن، قال لهما: «**يَسِّرَا ولا تُعسِّرَا وتطاوعا ولا تُنَفِّرَا**»، فقال له أبو موسى: إن لنا بأرضنا شرابا يُصنع من العسل يقال له البتع، ومن الشعير يقال له: المِزْرُ ، قال: «**كل مُسكرحَرَام**» فقال لي معاذ: كيف تقرأ القرآن؟ قلت أقرأه في صلاتي، وعلى راحلتي، وقائما وقاعدًا، أتفوقه تفوقاً ، يعني شيئًا بعد شيء، قال: فقال معاذ: لكني أنام ثم أقوم، فأحتسب نومتي كما أحتسب قومتي قال: وكأن معاذًا فُضِّلَ عليه[1].

(١) أخرجه البخاري (٤٣٤٤) (٤٣٤٥)، ومسلم (١٧٣٣).

وعندما خرج الحبيب ﷺ يودع معاذًا رضي الله عنه أحسَّ أنه لن يراه بعد اليوم، وأن هذا هو آخر لقاء يجمعهما في الدنيا، فقال له تلك الكلمات المؤثرة.

فعن عاصم بن حميد السكوني أن معاذ بن جبل لما بعثه النبي ﷺ إلى اليمن خرج يوصيه، ومعاذ راكب، ورسول الله ﷺ يمشي تحت راحلته، فلما فرغ ، قال: «**يا معاذ! إنك عسى أن لا تلقاني بعد عامي هذا. ولعلك أن تمر بمسجدي وقبري**». فبكى معاذ جشعًا [1] لفراق رسول الله ﷺ . قال : **لا تبك يا معاذ، أو إن البكاء من الشيطان**[2].

وسافر معاذ إلى اليمن يدعو إلى الله ويعلم الناس شرائع الإسلام وبعد فترة يسيرة توفى رسول الله ﷺ قبل أن يرجع معاذ بن جبل من اليمن فلما عاد إلى المدينة ولم يجد فيها النبي ﷺ أحس وكأن روحه قد خرجت من جسده.. بل أحس بأن الدنيا كلها أظلمت من حوله ويتعلم منه الرحمة والأخلاق الكريمة التي يندر وجودها في هذا الكون.

وبعد وفاة الحبيب ﷺ تولى الخلافة أبو بكر رضي الله عنه وكان يعرف لمعاذ قدره ومكانته.

وكان معاذ رضي الله عنه سمح اليد والنفس والخلق.

فلا يُسأل عن شيء إلا أعطاه .. حتى ذهب جوده وسخاؤه بكل ماله.

فلما عاد - معاذ - من اليمن ومعه شيء من المال والرقيق فلقيه عمر بمكة، فقال: ما هؤلاء؟ قال: أهدوا لي، قال: ادفعهم إلى أبي بكر، فأبى، فبات، فرأى كأنه يجر إلى النار وأن عمر يجذبه، فلما أصبح فرآهم يصلون، قال: لمن تُصلون؟ - يسأل الرقيق والعبيد - قالوا: لله، قال: فأنتم لله[3].

---

(١) الجشع : الجزع لفراق الإلف .

(٢) قال الأرنؤوط رجاله ثقات وهو في المسند (٥/ ٢٣٥).

(٣) أخرجه ابن سعد (٣/ ٢/ ١٢٢) وأبو نعيم (١/ ٢٣٢) في الحلية مرسلا ووصله الحاكم (٣/ ٢/ ٢٧٢) وصححه ووافقه الذهبي.

وما كان عمر متجنيًا على معاذ بتهمة أو ظن.. وإنا هو «عصر المُثل» كان يزخر بقوم يتسابقون إلى ذري الكمال الميسور، فمنهم الطائر الملحق، ومنهم المهرول. ومنهم المقتصد...ولكنهم جميعا في قافلة الخير سائرون[١].

أما أمانة معاذ بن جبل ﷺ مع الله، فعن سعيد بن المسيب أن عمر بعث معاذًا ساعيًا على بني كلب أو غيرهم، فقسم فيهم فيئهم حتى لم يدع شيئا، حتى جاء بحلسِهِ الذي خرج به على رقبته[٢].

ومن أدبه مع الله، عن عبد الله بن الصامت عن [معاذ] قال: ما بزقت على يميني منذ أسلمت[٣].

ومن مناقب معاذ ﷺ حرصه على الإكثار من ذكر الله.

فعن معاذ قال: ما عمل آدمي عملًا «أنجى له من عذاب الله» من ذكر الله. قالوا: يا أبا عبد الرحمن! ولا الجهاد في سبيل الله؟، قال: ولا الجهاد في سبيل الله ، إلَّا أن يضرب بسيفه حتى ينقطع لأن الله تعالى يقول في كتابه: ﴿وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [العنكبوت:٤٥]»[٤].

وأما ورعه وعبادته ﷺ فمنها ما ورد عن يحيى بن سعيد قال: كانت تحت معاذ ابن جبل ﷺ امرأتان فإذا كان عند إحداهما لم يشرب في بيت الأخرى الماء.

وعن يحيى بن سعيد أن معاذ بن جبل ﷺ كانت له امرأتان. فإذا كان يوم إحداهما لم يتوضأ في بيت الأخرى. ثم توفيتا في السقم الذي بالشام،والناس في شغل فدفنتا في حفرة، فأسهم بينهما أيتهما تقدم في القبر.

وعن ثور بن يزيد قال: كان معاذ بن جبل ﷺ إذا تهجد من الليل، قال: اللهم قد

---

(١) رجال حول الرسول ﷺ (ص١٧٦).
(٢) سير أعلام النبلاء للذهبي (١/ ٤٥٤).
(٣) ذكره الهيثمي في المجمع (٩/ ٣١١)، وقال: رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح.
(٤) أخرجه أحمد في الزهد (١٨٤)، وأبو نعيم في الحلية (١/ ٢٣٥).

نامت العيون، وغارت النجوم وأنت حيٌّ قيوم، اللهم طلبي للجنة بطيء، وهربي من النار ضعيف، اللهم اجعل لي عندك هدى ترده إلى يوم القيامة إنك لا تخلف الميعاد[١].

ومن وصايا معاذ بن جبل رضي الله عنه الغالية ما ورد عن أبي قلابة وغيره أن رجلًا مَرَّ به أصحاب النبي ﷺ، فقال: أوصوني، فجعلوا يوصونه، وكان معاذ بن جبل في آخر القوم، فقال: أوصني يرحمك الله، قال: قد أوصوك فلم يألُوا - لم يُقَصِّروا - وإني سأجمع لك أمرك: اعلم أنه لا غنى بك عن نصيبك من الدنيا، وأنت إلى نصيبك إلى الآخرة أفقر، فابدأ بنصيبك من الآخرة، فإنه سيمر بك على نصيبك من الدنيا فينتظمه، ثم يزول معك أينما زلت[٢].

وعن عبد الله بن سلمة قال: قال رجل لمعاذ بن جبل: علمني. قال: وهل أنت مطيعي؟ قال: إني على طاعتك لحريص. قال: صُم وأفطر، وصَلِّ ونم، واكتسب ولا تأثم، ولا تموتن إلا وأنت مسلم، وإياك ودعوة المظلوم.

وعن معاوية بن قرة قال: قال معاذ بن جبل لابنه: يا بني إذا صليت فصلِّ صلاة مودع لا تظن أنك تعود إليها أبدًا، واعلم يا بني أن المؤمن يموت بين حسنتين، حسنة قدمها وحسنة أخرها[٣].

ومن مناقب معاذ بن جبل رضي الله عنه الإيثار الذي يفوق الخيال، فعن مالك الدار أنّ عمر رضي الله عنه أخذ أربع مئة دينار، فقال لغلام: اذهب بها إلى أبي عبيدة، ثم تَلَهَ ساعة في البيت حتى تنظر ما يصنع، قال: فذهب الغلام فقال: يقول لك أمير المؤمنين: خذ هذه، فقال: وصله الله ورحمه، ثم قال: تعالى يا جارية اذهبي بهذه السبعة إلى فلان وبهذه الخمسة إلى فلان، حتى أنفذها، فرجع الغلام إلى عمر، وأخبره، فوجده قد أعد مثلها لمعاذ بن جبل فأرسله بها إليه، فقال معاذ: وصله الله يا جارية! اذهبي

(١) صفة الصفوة (١/ ٢٠٥).
(٢) أخرجه أحمد في الزهد (١٨٢) نقلًا من السير للذهبي (٦/ ٤٥٥).
(٣) صفة الصفوة (١/ ٢٠٧).

إلى بيت فلان بكذا ،ولبيت فلان بكذا، فاطلعت امرأة معاذ، فقالت: ونحن والله مساكين، فأعطنا، ولم يبق في الخرقة إلا ديناران فدحا بهما إليها. ورجع الغلام، فأخبر عمر، فسُرَّ بذلك، وقال: إنهم إخوة بعضهم من بعض[1].

أما جهاد معاذ بن جبل رضي الله عنه في سبيل الله فله في ذلك صفحات مشرقة ولقد كان يبحث عن الشهادة في مظانها ويقبل عليها إقبال الظاميء على الماء البارد في اليوم القائظ.

فكان رضي الله عنه قائد الميمنة في أجناديد، « قام في أصحابه فقال: يا معشر المسلمين، اشروا أنفسكم اليوم لله، فإنكم إن هزمتموهم اليوم، كانت هذه البلاد دار الإسلام أبدًا مع رضوان الله والثواب العظيم من الله » .

وفي فحل بيسان كان رضي الله عنه على ميمنة المسلمين ليلقن الناس درسًا في أن أهلَ العلم هم أقدر الناس عِلىَ حمل لواء الجهاد والثواب والثبات عند الشدائد وفي المكاره.

قال ثابت بن سهل بن سعد: كان معاذ بن جبل يومئذ من أشد الناس علينا حرصا، وأمضاهم في رقاب الروم سيفا، فبينما هو يحارب في ميمنة المسلمين إذ أقبلت جنود الروم تحوط عسكر المسلمين، فبرز إليهم معاذ بن جبل رضي الله عنه ونادى فقال: أيها الناس اعلموا - رحمكم الله - أن الله قد وعدكم بالنصر وأيدكم بالإيمان، فانصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم، واعلموا أن الله معكم، وناصركم على عبدة الأوثان.

قلت ما سمعتم وأستغفر الله لي ولكم ولسائر المسلمين من كل ذنب فاستغفروه إنه هو الغفور الرحيم.

(١) أخرجه ابن سعد في الطبقات (٣/ ١/ ٣٠٠ - ٣٠١).

الحمد لله ناصر الموحدين،والعاقبة للمتقين، ولا عدوان إلَّا على الظالمين من المشركين والكافرين والمنافقين وأشهد أن لا إله إلَّا الله وحده لا شريك له وأشهد أن نبينا محمد صلى الله عليه وعلى آله وصحابته أجمعين.

أما بعد:

ويقول معاذ رضي الله عنه لوجهاء الروم قبل معركة «فحل» ، لما فاوضهم ورفض الجلوس معهم على البُسُط: قمت إعظاما للمشي على هذه البُسُط ، والجلوس على هذه النمارق التي استأثرتم بها على ضعفائكم وأهل ملتكم، وإنما هي من زينة الدنيا وغرورها، وقد زهَّدَ الله في الدنيا وذمَّها، ونهى عن البغي والسَّرف فيها، فأنا جالس هاهنا على الأرض وكلموني ولما قالوا له: اذهب إلى أصحابك، فوالله إنا لنرجو أن نفرِّكُم في الجبال غدًا - نجعلكم تفرون في الجبال - قال معاذ: أما الجبال فلا ، ولكن والله لتقتلنا عن آخرنا أو لنخرجنكم من أرضكم أذلةً صاغرين[1].

أما جهاده في يوم اليرموك فقد كان رضي الله عنه قائد الميمنة. وفي صباح المعركة وقف يخطب في الناس ويقول: يا قُراء القرآن ومستحفظي الكتاب، وأنصار الهدى وأولياء الحق، إن رحمة الله - والله- لا تنال وجنته لا تدخل بالأماني، ولا يؤتي الله المغفرة والرحمة الواسعة إلا الصادقين المصدقين بما وعدهم الله - عز وجل - ألم تسمعوا قول الله - عز وجل:

﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا ۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾ [النور:٥٥].

أنتم إن شاء الله منصورون، فأطيعوا الله ورسوله، ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم واصبروا إن الله مع الصابرين، واستحيوا من ربكم أن يراكم فرارًا من

---

(١) الطريق إلى دمشق، أحمد عادل كمال (ص ٣٢٣).

عدوكم وأنتم في قبضته ورحمته، وليس لأحد منكم ملجأ من دونه، لا متعزز، بغير الله[١].

ولما أنقض الروم على الميمنة صاح معاذ: يا عباد الله المسلمين، إن هؤلاء قد تيسروا للشدة عليكم، ولا والله لا يردهم إلا صدق اللقاء والصبر في البأساء. ثم نزل عن فرسه وقال: من أراد أن يأخذ فرسي ويقاتل عليه فليأخذه وآثر بذلك أن يقاتل راجلاً مع المشاة، فوثب إليه ابنه عبد الرحمن وهو غلام قد احتلم،فقال: يا أبت، إني لأرجو أن أكون فارسا أعظم غناء عن المسلمين مني راجلًا، وأنت يا أبت - راجل أعظم منك فارسًا، وأعظم المسلمين رجَّالة، وإذا رأوك صابرًا محافظًا صبروا - إن شاء الله - وحافظوا. فقال معاذ: وفقني الله وإياك يا بني[٢].

ويهاجر بعد ذلك معاذ رضي الله عنه إلى بلاد الشام ليكمل رسالته العظيمة في تعليم الناس أمور دينهم وشريعة ربهم وسنة نبيهم ﷺ .

فلما أصيب أبو عبيدة رضي الله عنه استخلف عمر معاذًا رضي الله عنه على الشام ولم يمض على ذلك بضعة أشهر حتى لقي ربه محبًّا منيبًا.

عن أم سلمة رضي الله عنها أن أبا عبيدة لما أُصيب، استخلف معاذ بن جبل، يعني في طاعون عمواس، اشتد الوجع، فصرخ الناس إلى معاذ: ادع الله أن يرفع عنا هذا الرِّجز، قال: إنه ليس برجز ولكن دعوة نبيكم، وموت الصالحين قبلكم، وشهادة يخص الله [بها] من يشاء منكم، أيها الناس أربع خلال مَن استطاع أن لا تدركه، قالوا: ما هي؟ قال: يأتي زمان يظهر فيه الباطل. ويأتي زمان يقول الرجل: والله ما أدري ما أنا، لا يعيش على بصيرة، ولا يموت على بصيرة[٣].

وفي رواية أنه لما نزل الطاعون في جند الشام وهو فيه قال للصحابة: رحمة ربكم

---

(١) الطريق إلى دمشق (ص٧٢).
(٢) الطريق إلى دمشق (ص٤٧٦).
(٣) أخرجه ابن سعد في الطبقات (٣/ ٢/ ١٢٤).

ودعوة نبيكم، وموت الصالحين قبلكم، اللهم فآت آل معاذ النصيب الأوفر من هذه الرحمة، فما أمسى حتى طُعِنَ ابنه عبد الرحمن وأحب الناس إليه الذي كان يكنى به، فرجع معاذ من المسجد، فوجده مكروبًا. فقال: يا عبد الرحمن، كيف أنت؟ فاستجاب له، فقال عبد الرحمن: يا أبت: ﴿ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ﴾ [البقرة:١٤٧].

فقال معاذ رضي الله عنه: وأنا ستجدني إن شاء الله من الصابرين، فمات من ليلته، ودفن في الغد»[1].

رضي الله عنك ... من مشتاق إلى ربك، يدعو ربه: «اللهم إن كنت تعلم أن معاذ بن جبل سمعه من رسول الله ﷺ، فأعطه هو وأهل بيته الحظ الأوفر منه، فأصابهم الطاعون فلم يبق منهم أحد، فَطُعِنَ في أصبعه السبابة فكان يقول: ما يسرني أن لي بها حُمر النَّعَمَ.

ولما اشتد به نزع الموت، نزع أشد العالم نزعه، فكان كلما أفاق من غمرة فتح طرفه، فقال: أخنق خنقك، فوعزتك إنك لتعلم أنِّي أحبك.

وفي «الزهد» لأحمد: لما حضره الموت - يعني معاذ - قال: «أعوذ بالله من ليلة صباحها إلى النار»، مرحبًا بالموت زائرًا مغيَّب، حبيب جاء على فاقة، اللهم إني قد كنت أخافك فأنا اليوم أرجوك، اللهم إن كنت تعلم أني لم أكن أحب الدنيا وطول البقاء فيها لكرى الأنهار، ولا لغرس الأشجار، ولكن لظمأ الهواجر، ومكابدة الساعات، ومزاحمة العلماء بالرُّكب عند حلق الذكر[2].

ورحل معاذ رضي الله عنه عن الدنيا وبقي علمه، بل وبقيت سيرته العذبة.

رحل عن الدنيا ليلحق بالحبيب ﷺ في جنات النعيم التي فيها مالا عينٌ رأت ولا

---

(١) بذل الماعون في فضل الطاعون لابن حجر العسقلاني، تحقيق أحمد عصام عبد القادر الكاتب. ط. دار العاصمة (ص٢٦٧).

(٢) الزهد لأحمد (ص١٨٠ - ١٨١) ترطيب الأفواه، د/ سيد حسين (١/ ٢٧١ - ٢٧٢).

أذنٌ سمعت ولا خطر على قلب بشر ، فرضي الله عن معاذ وعن سائر الصحابة أجمعين.

اللهم أعز الإسلام والمسلمين، وأذل الشرك والمشركين، اللهم وحد صفوف المسلمين واجمع كلمتهم وانصرهم على عدوك وعدوهم. اللهم من ولي أمر المسلمين فيسر لهم فيسر أمره وأصلح شأنه ومكنه في الأرض، ومن ولي أمر المسلمين وشق عليهم فاشقق عليه سميع الدعاء ، ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين وصلِّ اللهم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم، وقوموا إلى صلاتكم.

أُبيّ بن كعب رضي الله عنه

إن الحمد لله نحمده، ونستعينه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مُضل له ، ومن يُضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلَّا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾[آل عمران:١٠٢].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا﴾ [النساء:١].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ٧٠ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب:٧٠، ٧١].

أما بعد:

فإن أصدقَ الحديثِ كتابُ الله، وخيرَ الهدي هديُ محمدٍ ﷺ، وشرَّ الأمورِ محدثاتُها، وكلَّ محدثةٍ بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار.

أيها الأحبة في الله: ها نحن على موعد مع الصحابيّ الجليل أُبيّ بن كعب رضي الله عنه إنه سيد القراء، أبو منذر الأنصاري النجاري المدني المقرئ البدري ويُكنى أيضًا أبا الطفيل.

شهد العقبة وبدرًا، وجمع القرآن في حياة النبي ﷺ ، وعُرِضَ على النبي ﷺ وحفظ عنه علمًا مباركًا، وكان رأسًا في العلم والعمل رضي الله عنه[1].

كان يكتب الوحي للنبي ﷺ وهو أحد الذين كانوا يُفتون على عهد رسول الله ﷺ .

هذا الصحابيّ الجليل نشأ في ربا المدينة، معتزلًا الحياة والناس؛ باحثًا عن المدبر

---

(١) سير أعلام النبلاء للإمام الذهبي (١/ ٣٩٠).

لهذا الكون، ومن أجل هذه الغاية، تعلم القراءة والكتابة، وعكف قبل بعثة النبي ﷺ على ما كان يقع في يده من وريقات التوراة التي كان يتداولها اليهود الذين كانوا يجاورونهم بالمدينة، ولكنها لم تشف غلته، ولم تستطع أن تجيب عن الأسئلة التي تنبت في مخيلته، وعاش حائرًا يبحث عن الهدى، وظامئا يفكر في النبع: غريبا في مجتمع مغرق في أمر الحياة فلا يفكر لحظةً في أمر السماء ، يُكنى أبا الفضل، وكناه رسول الله ﷺ أبا المنذر.

إن الرجال العقلاء دائمًا في صراع مع الدنيا ومع الناس، تجابههم دائما أمور لا تجد استجابة من داخلهم، ومن هنا يصابون بالقلق، ويفرون من المجتمعات، ويتحاشون عبث الحياة ولهوها. وكان أبيّ من هذا الطراز، أحس أن البشرية في فترة من الفترات قد ضلت طريقها، وألغت عقلها عندما اتجهت بالولاء والتقدير إلى الشجر والحجر، أيكون لهذا الجماد من القدرة على النفع والضر ما ليس للإنسان؟وإذا كان في مقدور هذه الجمادات في تصور المشركين أن تقدم لهذا الإنسان الضعيف ما يجمل حياته، ويسعد أيامه فمن خلق السماء وأوجد الأرض؟ .

من الذي أقام الجبال الشاهقة، وعمق البحار الزاخرة؟.

من الذي يخرج النبات من الأرض؟.

من الذي يُسَيِّر الرياح ويُرسل الغيث؟.

من الذي بيده حق الحياة والموت؟.

كانت هذه الأسئلة تلاحقه ليل نهار[1].

وفي ليلة من الليالي التي أراد الله فيها أن يسوق إلى هذا العبد الصالح أعظم هدية وأجل منحة فشرح صدره للإسلام وذلك بعد أن وصل إلى سمعه خبر الحبيب ﷺ، فذهب أبي إلى سعد ابن الربيع وطرق بابه ليسأله عن هذا الدين، وإذا بسعد يخبره

(١) صور من سير الصحابة/ عبد الحميد السحياني (ص٥٧٨ - ٥٧٩) بتصرف.

بمكان مصعب بن عمير الذي تعلَّم بين يدي الحبيب ﷺ كيف تكون الدعوة إلى الله تعالى بالحكمة والموعظة الحسنة، فدعاه إلى الله، فانشرح صدره فأسلم وذهب إلى الحبيب ﷺ وشهد بيعة العقبة.

وعاش أبيّ رضي الله عنه عابدًا زاهدًا لا تميل نفسه إلى زخارف الدنيا وزهرتها الفانية، فكان يقضي الساعات والأوقات في طلب العلم وقراءة القرآن.

وظل على تلك الحالة إلى أن جاء الحبيب ﷺ مهاجرًا إلى المدينة فسعد أبيّ سعادة عظيمة فكان يلازم النبي ﷺ ملازمة الإنسان لظله ليقتبس من هديه وعلمه وأخلاقه السامية. ولما كانت غزوة بدر دخل هذا العابد الزاهد فيها وكأنه الليث في عرينه، وخاض تلك الغزوة بكل بسالة وشجاعة وفداء.

وطوال سنوات الصُّحْبَة، وأُبيّ بن كعب قريب من رسول الله ﷺ ينهل من معينه العذب المعطاء، وبعد انتقال رسول الله ﷺ إلى الرفيق الأعلى، ظل أبيّ على عهده الوثيق في عبادته، وفي قوة دينه، وخلقه.

وكان دائما نذيرًا في قومه، يذكرهم بأيام الرسول ﷺ ، وما كانوا عليه من عهد، وسلوك، وزهد، ومن كلماته الباهرة التي كان يهتف بها في أصحابه: لقد كنا مع رسول الله ﷺ وجوهنا واحدة، فلما فارقَنَا، اختلفت وجوهنا يمينًا وشمالاً .

ولقد ظل مستمسكًا بالتقوى، معتصما بالزهد، فلم تستطع الدنيا أن تفتنه أو تخدعه، ذلك أنه كان يرى حقيقتها في نهايتها.

فمهما يعيش المرء، ومهما يتقلب في المناعم والطيبات، فإنه ملاق يومًا يتحول فيه كل ذلك إلى هباء، ولا يجد بين يديه إلا ما عمل من خير، أو ما عمل من سوء[1].

ومن مناقب أُبيّ بن كعب رضي الله عنه حُبه للقرآن، الذي رفعه الله به إلى أعلى المنازل.

فلقد أسلم قلبه قبل أن تسلم جوارحه، وعاش بكل أحاسيسه مع آيات القرآن

---

(١) رجال حول الرسول (ص٦٢٢).

وحروفه حتى بلغ به القرآن أعلى المنازل، فأصبح واحدًا من بين أربعة كان النبي ﷺ يأمر الصحابة أن يأخذوا عنهم القرآن.

عن عبد الله بن عمرو ﷺ قال سمعت النبي ﷺ، يقول: «**استقرئوا القرآن من أربعة: من ابن مسعود، وسالم مولى أبو حذيفة، وأبيّ، ومعاذ بن جبل**» (١).

قال أنس بن مالك: جمع القرآن على عهد رسول الله ﷺ أربعة كلهم من الأنصار: أُبيّ بن كعب، ومعاذ بن جبل، وزيد بن ثابت، وأبو زيد أحد عمومتي (٢).

وقال الذهبي في «معرفة القراء الكبار»: أُبيّ بن كعب أقرأ من أبيّ بكر ومن عمر.

وعن أبيّ قلابة عن أبيّ المهلب، قال: كان أُبيّ يختم القرآن في ثمان (٣).

وقال ﷺ: أرحم أمتي بأمتي أبو بكر، وأقرؤهم لكتاب الله أُبيّ بن كعب... »(٤).

ومن مناقب أُبيّ ﷺ أن الله أمر رسوله ﷺ أن يقرأ عليه القرآن.

ويا لها من منقبة يعجز اللسان عن وصفها ويعجز القلم عن التعليق عليها ولو بكلمة واحدة. لك أن تتخيل معي أيها الأخ الحبيب أن الله قد ذكر اسمك من فوق سبع سماوات وليس ذلك فحسب، بل إن الله يأمر نبيه ﷺ أن يقرع عليك بابك ويقول لك: إن الله أمرني أن أقرأ عليك القرآن! .

تالله لو كنت مكان أُبيّ بن كعب ﷺ لتمنيت أن ألقى الله في تلك اللحظة لتكون تلك المنقبة هي خاتمة السعادة.

فهيا بنا نعيش تلك اللحظات مع الفرحة الغامرة التي ملأت قلب « أُبيّ » سعادة وسرورًا. فعن أنس بن مالك ﷺ قال: قال النبي ﷺ لأبيّ بن كعب: «**إن الله أمرني**

---

(١) أخرجه البخاري (٣٨٠٦).

(٢) أخرجه البخاري (٥٠٠٣)، ومسلم (٢٤٦٥).

(٣) قال الذهبي: إسناده صحيح.

(٤) رواه أحمد، والترمذي، والنسائي عن أنس، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٨٩٥).

أن أقرأ عليك القرآن» وفي لفظ: «أمرني أن أُقرئك القرآن » قال: الله سماني لك؟ قال: «نعم» قال: وذكرت عند رب العالمين؟ قال: «نعم». فذرفت عيناه[١].

قال الإمام النووي - رحمه الله - : وأما الحكمة في أمره بالقراءة على أُبيّ، قيل: قرأ عليه ليسن عرض القرآن على حفاظه البارعين فيه المجيدين لأدائه ولينبه الناس على فضيلة أُبيّ في ذلك، ويحثهم على الأخذ منه وكان كذلك فكان بعد النبي ﷺ رأسًا وإمامًا مقصودًا في ذلك مشهورًا به. والله أعلم[٢].

قلت ما سمعتم وأستغفر الله لي ولكم ولسائر المسلمين من كل ذنب فاستغفروه إنه هو الغفور الرحيم.

الحمد لله الذي علم بالقلم، علم الإنسان ما لم يعلم، وأشهد أن لا إله إلَّا الله وحده لا شريك له، القائل: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾، وأشهد أن نبينا محمد القائل: أوتيت القرآن ومثله معه » صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم.

أما بعد:

عن أُبيّ بن كعب قال: قال رسول الله ﷺ: «**يا أبا المنذر أي آية من كتاب الله معك أعظم؟**» قال: قلت: الله ورسوله أعلم قال: «**يا أبا المنذر أتدري أي آية من كتاب الله معك أعظم؟**، قال: قلت: الله لا إله إلا هو الحي القيوم. قال: **فضرب في صدري وقال: «والله ليهنك العلم أبا المنذر »**[٣].

ومن مناقب أُبيّ بن كعب ﷺ أن له دعوة مستجابة، فعن أبيّ سعيد الخدري ﷺ أن رجلًا من المسلمين قال: يا رسول الله أرأيت هذه الأمراض التي تصيبنا مالنا فيها؟ قال: كفارات »، فقال أُبيّ بن كعب، يا رسول الله! وإن قلت؟ قال: وإن

---

(١) أخرجه مسلم (٧٩٩) والبخاري (٤٩٥٩٩).
(٢) مسلم بشرح النووي (١٦/ ٣٠/ ٣١) بتصرف.
(٣) أخرجه مسلم (٨١٠).

شوكة فما فوقها، فدعا أُبيّ رضي الله عنه ألا يفارقه الوعك حتى يموت، وألَّا يشغله عن حج ولا عمرة ولا جهاد ولا صلاة مكتوبة في جماعة. قال: فما مس إنسان جسده إلا وجد حره حتى مات.

وفي رواية: قال أُبي: يا رسول الله! ما جزاء الحُمَّى؟ قال: «تجري الحسنات على صاحبها». فقال: اللهم إني أسألك حمى لا تمنعني خروجًا في سبيلك» فلم يمس أبيّ قط إلا وبه الحمى[1].

أما حرص أُبيّ رضي الله عنه على الاتباع لسُنَّة الحبيب ﷺ، فعن قيس بن عباد، قال: أتيت المدينة للقاء أصحاب محمد ﷺ، ولم يكن فيهم رجل ألقاه أحب إليّ من أُبيّ، فأقيمت الصلاة وخرج فقمت في الصف الأول، فجاء رجل فنظر في وجوه القوم، فعرفهم غيري، فنحاني، وقام في مقامي فما عقلت صلاتي. فلما صلى، قال: يا بني! لا يسؤوك الله، فإني لم آت الذي أتيت بجهالة، ولكن رسول الله ﷺ قال لنا: «كونوا في الصف الذي يليني». وإني نظرت في وجوه القوم، فعرفتهم غيرك. وإذا هو أُبيّ رضي الله عنه[2].

وكان يقول: عليكم بالسبيل والسُنَّة، فإنه ما على الأرض من عبد على السبيل والسُنَّة ذكر الله، ففاضت عيناه من خشية الله، فيعذبه الله أبدًا. وما على الأرض من عبد على السبيل والسُنَّة ذكر الله فاقشعر جلده من خشية الله إلا كان مثله كمثل شجرة قد يبس ورقها، فهي كذلك، إذا أصابتها ريح شديدة فتحات أي «سقط» عنها ورقها إلَّا حط الله عنه خطاياه كما تحات عن الشجرة ورقها، فإن اقتصادًا في سبيل الله وسُنَّة خير من خلاف سبيل الله وسُنَّة، وانظروا أن يكون عملكم إن كان اجتهادًا أو اقتصادًا أن يكون على منهاج الأنبياء وسُنَّتهم.

وأما الحديث عن وصايا أُبيّ الغالية فمنها ما يلي: قال أبو نضرة العبدي: قال رجل منَّا يُقال له جابر أو جويبر: طلبت حاجة إلى «عمر» وإلى جنبه رجل أبيض الثياب

---

(١) رواه أحمد (٣/ ٢٣)، وصححه ابن حبان (٦٩٢).

(٢) قال الأرنؤوط إسناده صحيح: وهو في المسند (٥/ ١٤٠)، وأخرجه النسائي (٢/ ٨٨).

والشعر، فقال: إن الدنيا فيها بلاغُنا، وزادُنا إلى الآخرة، وفيها أعمالنا التي نُجزى بها في الآخرة. فقلت: من هذا يا أمير المؤمنين؟، قال: هذا سيد المسلمين أُبيّ بن كعب رضي الله عنه [١].

وعن أبيّ العالية قال: قال رجل لأُبيّ بن كعب رضي الله عنه ، أوصني، قال: اتَّخذْ كتاب الله إمامًا وارض به قاضيًا وحكمًا، فإنه الذي استخلف فيكم رسولكم، شفيع، مطاع، وشاهد لا يتهم فيه ذكركم وذكر من قبلكم، وحكم ما بينكم، وخبركم وخبر ما بعدكم [٢].

وعن أبيّ العالية عن أُبيّ رضي الله عنه في قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ﴾[الأنعام:٦٥]. قال: هن أربع، كلهن عذاب، وكلهن واقع لا محالة، فمضت اثنتان بعد رسول الله ﷺ بخمسَ وعشرين سنة، فألبسوا شيعًا، وذاق بعضهم بأس بعض، وبقي ثنتان واقعتان لا محالة: الخسف والرجم [٣].

وعن عبد الله بن الحارث بن نوفل،قال:كنت واقفًا مع أُبيّ بن كعب رضي الله عنه في ظل أطم حسان، والسوق سوق الفاكهة اليوم. فقال أُبي: ألا ترى الناس مختلفة أعناقهم في طلب الدنيا؟ قلت بلى، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**يوشك أن يحسر الفرات عن جبل من ذهب، فإذا سمع به الناس، ساروا إليه، فيقول من عنده: لئن تركنا الناس يأخذون منه لا يدعون منه شيئًا ، فيُقتل الناسُ من كل مائة تسعة وتسعون**» [٤].

فكان يخشى على الأمة المسلمة من تلك الفتن التي تعصف بالقلوب، وكان قلبه يعتصر حزنا وألما كلما ذكر تلك الأحاديث التي تخبر عن تلك الفتن.

ومن وصاياه الغالية أنه كان يقول: ما من عبد ترك شيئا لله - عز وجل - إلَّا أبدله الله - عز وجل - به ما هو خير منه من حيث لا يحتسب، وما تهاون به عبد فأخذه

(١) أخرجه ابن سعد (٣/ ٢/ ٦٠) نقلا من السير (١/ ٣٩٢٩).
(٢) أخرجه أبو نعيم في الحلية (١/ ٢٥٣).
(٣) رواه أحمد (٥/ ١٣٥) والطبري (٧/ ٢٢٦).
(٤) رواه أحمد (٥/ ١٣٩) مختصرا، ومسلم (٢٨٩٥) الفتن.

من حيث لا يصلح إلّا آتاه الله - عز وجل - بما هو أشد عليه منه، من حيث لا يحتسب[١].

أما مكانة أُبيّ بن كعب رضي الله عنه الغالية في قلوب الصحابة ومن بعدهم فلقد كان عمر رضي الله عنه يقول عنه: هذا سيد المسلمين.

وكان الصحابة يعلمون قدر أُبيّ ويحملون له كل الحب والتقدير في قلوبهم.

فعن أبيّ إدريس الخولاني أن أبا الدرداء ركب إلى المدينة في نفر من أهل دمشق، فقرؤوا يومًا على عمر:

﴿ إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ﴾ [الفتح:٢٦].

ولو حميتم كما حموا لفسد المسجد الحرام. فقال عمر: من أقرأكم هذا؟ قالوا: أُبيّ بن كعب. فدعا به، فلما أتى قال: اقرؤوا. فقرؤوا كذلك. فقال أبي: والله يا عمر إنك لتعلم أني كنت أحضر ويغيبون، وأدنى ويحجبون، ويُصْنَعُ بي ويُصْنَعُ بي، والله لئن أحببت، لألزمنَّ بيتي فلا أحدث شيئًا، ولا أقرئ أحدًا حتى أموت. فقال عمر: اللهم غُفْرًا! إنا لنعلم أن الله قد جعل عندك علمًا فعلّم الناس ما عَلِمْتَ[٢].

بل لقد قال أُبيّ بن كعب لعمر بن الخطاب: مالك لا تستعملني؟ قال: أكره أن يدنس دينك[٣].

وأما عن علم أُبيّ بن كعب رضي الله عنه، قال معمر: عامة علم ابن عباس من ثلاثة: عمر وعليّ وأُبيّ - رضي الله عنهم -.

وقال الذهبي: قد ذكرت أخبار أُبيّ بن كعب في «طبقات القراء»، وأن ابن عباس وأبا العالية، وعبد الله بن السائب قرؤوا عليه، وأن عبد الله بن عياش المخزومي قرأ

---

(١) صفة الصفوة (١/ ١٩٨).

(٢) قال الأرنؤوط: رجاله ثقات: أخرجه الحاكم (٢/ ٢٢٥).

(٣) أخرجه ابن سعد (٣/ ٢/ ٦٠) نقلا من السير (١/ ٣٩٨).

عليه أيضًا، وكان عمر يُجِلُّ أُبيًّا ﷺ، ويتأدب معه ويتحاكم إليه[1].

وعاش أُبيّ بن كعب ﷺ بل وتعايش مع كل حرف من حروف القرآن حتى إنه يوم أن مات في خلافة عثمان ﷺ قال الناس جميعًا: مات سيد المسلمين أُبيّ بن كعب.

هكذا فإن من عرف قدر القرآن فإنه يعيش سيدًا ويموت سيدًا ويبعث يوم القيامة مع ملوك أهل الجنة الذين أحبوا الله وأحبوا كلامه، فأحبهم الله وقربهم إليه في جنته.

فرضي الله عن أبيّ وعن سائر الصحابة أجمعين.

اللهم اجعلنا من أهل القرآن وخاصته، اللهم اجعله حجة لنا لا حجة علينا يا أرحم الراحمين، اللهم ألحقنا بالصالحين واجعلنا هداة مهتدين لا ضالين ولا مضلين، اللهم انصر الإسلام وأهله، واخذل الشرك وأهله اللهم من ولي أمر المسلمين فيسر لهم فيسر أمره وأصلح شأنه ومكنه في الأرض، ومن ولي أمر المسلمين وشق عليهم فاشقق عليه ولا تجعل له تمكينا في الأرض، ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين وصلِّ اللهم على نبينا محمد وآله وصحبه وسلم، وقوموا إلى صلاتكم.

(١) سير أعلام النبلاء للإمام الذهبي (١/ ٣٩٨: ٤٠٠) بتصرف.

عبد الله بن جحش رضي الله عنه

إن الحمد لله نحمده، ونستعينه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مُضل له ، ومن يُضلل فلا هادي له ، وأشهد أن لا إله إلَّا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾[آل عمران:١٠٢].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا﴾ [النساء:١].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ٧٠ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب:٧٠، ٧١].

أما بعد:

فإن أصدقَ الحديثِ كتابُ الله، وخيرَ الهدي هديُ محمدٍ ﷺ، وشرَّ الأمورِ محدثاتُها، وكلَّ محدثةٍ بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار.

أيها الأحبة في الله: حديثنا اليوم بإذن الله عن الصحابي الجليل عبد الله بن جحش رضي الله عنه لقد نشأ عبد الله بن جحش وترعرع في مكة قريبًا من الكعبة المشرفة.

وهو ابن عمة رسول الله ﷺ، وفي الوقت نفسه هو صهر رسول الله ﷺ، وذلك لأن الحبيب ﷺ تزوج أخته زينب بنت جحش التي أمر الله نبيه ﷺ بزواجها من فوق سبع سماوات، فكانت تقول لزوجات النبي ﷺ - أمهات المؤمنين - رضي الله عنهن - بكل فخر واعتزاز. زوجكن أهاليكن وزوجني الله تعالى من فوق سبع سماوات[1].

---

(١) أخرجه البخاري (١٣/ ٣٤٧، ٣٤٨).

نشأ عبد الله بن جحش في مكة قريبا من الكعبة المشرفة، وعايش الأحداث التي مرت بمكة قبل مبعث الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام، فشاهد تجديد بناء الكعبة المشرفة، كما شاهد مشاحنة القبائل وتنافسهم على وضع الحجر الأسود، ثم رضوا أن يحكموا أول داخل عليهم ليختار القبيلة التي يكون لها شرف وضع الحجر الأسود في مكانه، شاهد محمدًا وهو يقرر أن تشترك القبائل كلها في وضعه، فقد طرح الرسول رداءه وأمر سيد كل قبيلة أن يأخذ بطرف منه، وهكذا انتهت مشكلة كادت تؤدي إلى حرب.

استمرت الدعوة إلى الإسلام سرًّا، ولما أربى الذين دخلوا في الإسلام على الثلاثين ما بين رجل وامرأة، وكان عبد الله بن جحش من بينهم، عندها اختار لهم رسول الله ﷺ دار الأرقم بن أبي الأرقم واستمرت الدعوة السرية ثلاث سنين، ثم نزل الوحي بتكليف الرسول الكريم ﷺ أن يصدع بما جاءه من الحق، ويجابه باطل قريش وأصنامهم[1].

أما أداؤه لأمانة الدعوة فما إن بعث الحبيب ﷺ حتى أسلم عبد الله ولم يتلكأ أو يتلعثم، وكان إسلامه قبل أن يدخل الحبيب ﷺ دار الأرقم، فكان من السابقين إلى الإسلام.

وقام بحمل أمانة الدين ليدعو الناس من حوله إلى جنة الدنيا والآخرة فدعا أخويه وأختيه إلى الإسلام، فاستجابوا جميعًا، ودخلوا في دين الله - جل وعلا - لتكتمل السعادة في قلوبهم.

عباد الله: ولما اشتد إيذاء قريش على أصحاب الحبيب ﷺ أشار عليهم بالهجرة إلى الحبشة؛ ليعيشوا في رحاب هذا الملك العادل - النجاشي - فكان من بين المهاجرين إلى الحبشة - الهجرة الثانية - عبد الله بن جحش ت.

ولما ترامت الأخبار إلى مسامع المهاجرين بأن قريشًا رجعت عن ضلالها، ودخلت

---

(١) رجال مبشرون بالجنة (ص:٢٦٣).

في دين الله - جل وعلا - وتابعت الرسول ﷺ عاد المهاجرون إلى مكة، وما إن وصلوا إلى أبواب مكة حتى علموا أن تلك الأخبار لم تكن سوى خدعة أراد بها كفار قريش أن يعود المهاجرون من الحبشة إلى مكة؛ لينالوا نصيبًا وافرًا من العذاب والنكال.

وبقي عبد الله وأسرته بمكة إلى أن أذن الحبيب ﷺ لأصحابه بالهجرة إلى يثرب - المدينة- فكان عبد الله وأسرته في طليعة المهاجرين بعد أبي سلمة، ولما خرج بنو جحش بن رئاب من دارهم، عدا عليها أبو سفيان بن حرب، فباعها من عمرو بن علقمة، فلما بلغ بني جحش ما صنع أبو سفيان بدارهم، ذكر ذلك عبد الله بن جحش لرسول الله ﷺ، فقال له رسول الله ﷺ: «**ألا ترضى يا عبد الله أن يعطيك الله بها دارًا خيرًا منها في الجنة؟**» قال: بلى، قال: «**فذلك لك**»، فلما افتتح رسول الله ﷺ مكة كلمهُ أو أحمد - أخو عبد الله بن جحش في دارهم، فأبطأ عليه رسول الله ﷺ فقال الناس لأبي أحمد، يا أبا أحمد إنَّ رسول الله ﷺ يكره أن ترجعوا في شيء من أموالكم أصيب منكم في الله عز وجل، فأمسك عن كلام رسول الله ﷺ ، وقال لأبي سفيان:

أَبْلِغْ أَبَا سُفْيَانَ عَنْ ∴ أَمْرٍ عَوَاقِبُهُ نَدَامَةْ

دار ابْنِ عَمِّكَ بِعْتَهَا ∴ تَقْضِي بِهَا عَنْكَ الْغَرَامَةْ

وَحَلِيفِكُمْ بِاللهِ رَبِّ ∴ النَّاسِ مُجْتَهِدُ الْقَسَامَةْ

اذْهَبْ بِهَا اذْهَبْ بِهَا ∴ طُوِّقْتَهَا طَوْقَ الْحَمَامَةْ[1]

وعاش عبد الله في رحاب إخوانه من الأنصار ليذوق طعم الراحة ويستنشق نسيم المحبة في الله بعد ما رأى الأخوة الصادقة من الأنصار الذين قال الله عنهم:

---

(١) السيرة لابن هشام (٢/ ١٠٧-١٠٨) بتصرف.

﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُو الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر:٩].

عباد الله: ولقد بَعَثَ رسول الله ﷺ عبد الله بن جحش بن رئاب الأسدي في رجب، مُقْفَلَهُ من بدر الأولى، وبعث معه ثمانية رَهْطٍ من المهاجرين، ليس فيهم من الأنصار أحد وكتب له كتابًا، وأمره أن لا ينظر فيه حتى يسير يومين ثم ينظر فيه، فيمضي لما أمره به، ولا يستكره من أصحابه أحدًا.

فلما سار عبد الله بن جحش يومين فتح الكتاب، فنظر فيه، فإذا فيه: «إذا نظرت في كتابي هذا فامض حتى تنزل نخلة بين مكة والطائف، فترصد بها قريشًا وتعلم لنا من أخبارهم»، فلما نظل عبد الله في الكتاب قال: سمعا وطاعة، ثم قال لأصحابه: قد أمرني رسول الله ﷺ أن أمضي إلى نخلة، أرصد بها قريشًا، حتى آتيه منهم بخبر، وقد نهاني أن أستكره أحدًا منكم، فمن كان منكم يريد الشهادة ويرغب فيها فلينطلق، ومن كره ذلك فليرجع، فأما أنا فماضٍ لأمر رسول الله ﷺ، فمضى ومضى معه أصحابه، لم يتخلف عنه منهم أحد.

وسلك على الحجاز، حتى إذا كان بمعدن فوق الفُرْع، يقال له « بحران» أضل سعد بن أبي وقاص، وعُتبة بن غزوان بعيرًا لهما، كانا يتعقبانه فتخلفا عليه في طلبه. ومضى عبد الله بن جحش وبقية أصحابه حتى نزل بنخلة، فمرت به عير لقريش تحمل زبيبا وأدما - الجلد - وتجارة من تجارة قريش فيها عمرو بن الحضرمي. فلما رآهم القوم هابوهم وقد نزلوا قريبًا منهم، فأشرف لهم عكاشة بن محصن، وكان قد حلق رأسه، فلما رأوه أمنوا، وقالوا: عُمَّار - أي جاءوا لأداء العمرة لا بأس عليكم منهم. وتشاور القوم فيهم وذلك في آخر يوم من رجب ، فقال القوم: والله لئن تركتم القوم هذه الليلة ليدخُلُنَّ الحرم، فليمتنعُنَّ منكم به، ولئن قتلتموهم لتقتلنهَّم في الشهر الحرام، فتردد القوم، وهابوا الإقدام عليهم، ثم شجَّعوا أنفسهم عليهم وأجمعوا على قتل من قدروا عليه منهم، وأخذ ما معهم، فرمى واقد بن عبد الله

التميمي عمرو بن الحضرمي بسهم فقتله، واستأسر عثمان بن عبد الله، والحكم بن كيسان - أخذهما أسرى - وأفلت القوم نوفل بن عبد الله، فأعجزهم، وأقبل عبد الله بن جحش وأصحابه بالعير وبالأسيرين حتى قدموا على رسول الله ﷺ المدينة.

قلت ما سمعتم وأستغفر الله لي ولكم ولسائر المسلمين من كل ذنب فاستغفروه إنه هو الغفور الرحيم.

الحمد لله ولي الصالحين، ولا عدوان إلا على الظالمين والعاقبة للمتقين، والمذلة والخسران لأعداء الدين من المشركين والكافرين والمنافقين، وأشهد أن لا إله إلَّا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن نبينا محمد عبده ورسوله صلى الله عليه وعلى آله وصحابته أجمعين.

أما بعد:

وقد ذكر بعضُ آل عبد الله بن جحش: أن عبد الله قال لأصحابه: إن لرسول الله ﷺ مما غنمنا الخُمس - وذلك قبل أن يَفْرض الله تعالى الخُمس من الغنائم - فَعَزَلَ لرسول الله ﷺ خُمس العير، وقسم سائرها بين أصحابه.

فلما قدموا على رسول الله ﷺ المدينة، قال: ما أمرتكم بقتال في الشهر الحرام، فوقف العير والأسيرين، وأبى أن يأخذ من ذلك شيئا، فلما قال ذلك رسول الله ﷺ سقط في أيدي القوم، وظنوا أنهم قد هلكوا، وعنفهم إخوانهم من المسلمين فيما صنعوا، وقالت قريش: قد استحل محمد وأصحابه الشهر الحرام، وسفكوا فيه الدم، وأخذوا فيه الأموال، وأسروا فيه الرجال. فقال: من يرد عليهم من المسلمين، ممن كان بمكة: إنما أصابوا ما أصابوا في شعبان.

فلما أكثر الناس في ذلك أنزل الله على رسوله ﷺ: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ۖ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ۖ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفْرٌۢ بِهِۦ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ ٱللَّهِ ﴾ [البقرة:٢١٧].

أي إن كنتم قتلتم في الشهر الحرام، فقد صدوكم عن سبيل الله مع الكفر به، وعن المسجد الحرام وإخراجكم منه وأنتم أهله أكبر عند الله من قتل من قتلتم منهم ﴿وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ﴾ أي: قد كانوا يفتنون المسلم عن دينه حتى يردوه إلى الكفر بعد إيمانه، فذلك أكبر عند الله من القتل: ﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَٰعُوا۟﴾[البقرة:٢١٧]، أي: ثم هم مقيمون على أخبث من ذلك وأعظمه، غير تائبين ولا نازعين.

فلما نزل القرآن بهذا الأمر، وفرج الله تعالى على المسلمين ما كانوا فيه من الشفق، قبض رسول الله ﷺ العير والأسيرين، وبعثت إليه قريش فداء في عثمان بن عبد الله والحكم بن كَيْسان، فقال رسول الله ﷺ: «**لا نفديكموها حتى يقدم صاحبانا - يعني سعد ابن أبي وقّاص، وعتبة بن غزوان - فإنا نخشاكم عليهما، فإن تقتلوهما نقتل صاحبيكم**»، فَقَدِمَ سعد وعتبة، فأفداهما رسول الله ﷺ منهم.

فأما الحكم بن كيسان، فأسلم فحسُن إسلامه، وأقام عند رسول الله ﷺ حتى قُتِلَ يوم بئر معونة شهيدًا، وأما عثمان بن عبد الله فَلَحِقَ بمكة، فمات بها كافرًا.

فلما تجلى عن عبد الله بن جحش وأصحابه ما كانوا فيه حين نزل القرآن، طمعوا في الأجر، فقالوا: يا رسول الله، أنطمع أن تكون لنا غزوة نُعْطَى فيها أجر المجاهدين؟ فأنزل الله - عز وجل - فيهم: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [البقرة:٢١٨].

فوضعهم الله - عز وجل - من ذلك على أعظم الرجاء[(١)].

وقد ذكر بعض آل عبد الله بن جحش: أن الله عز وجل قسم الفيء حين أحله، فجعل أربعة أخماس لمن أفاءه، وخمسًا إلى الله ورسوله، فوقع على ما كان عبد الله بن جحش صنع في تلك العير[(٢)].

---

(١) ذكره الهيثمي في المجمع (٦/ ١٩٨) وقال: رواه الطبراني ورجاله ثقات.

(٢) قال الهيثمي في المجمع (٦/ ٦٧) إسناده حسن.

قال ابن هشام: وهي أول غنيمة غنمها المسلمون: وعمرو بن الحضرمي أول من قتله المسلمون، وعثمان بن عبد الله والحكم بن كيسان أول من أسر المسلمون.

وأميرها عبد الله بن جحش أول من دُعِيَ بأمير المؤمنين.

أما الحديث عن الصفحات المشرقة من جهاده في سبيل الله، فإنه لما كانت غزوة بدر قاتل عبد الله فيها قتالًا شديدًا وأبلى فيها بلاءً حسنًا ، وأسر الوليد بن المغيرة، الذي أسلم بعد أن رأى حسن المعاملة من المسلمين.

ولما كانت غزوة أُحد دخل عبد الله يقاتل قتال من يبحث عن الشهادة ويشتاق إليها، فلما رأى - سعد بن أبي وقاص- دار بينهما هذا الحوار الذي يعجز القلم عن وصفه.

فعن سعد ابن أبي وقاص ﷺ أنه قال: لما كانت أُحدٌ لقيني عبد الله ابن جحش وقال: ألا تدعو الله؟ فقلت: بلى. فخلونا في ناحية فدعوت فقلت: يا رب إذا لقيتُ العدو فلقِّني رجلًا شديدًا بأسُهُ ، شديدًا حرده [١] ، أقتاله ويقاتلني، ثم ارزقني الظفر عليه حتى أقتله وآخذ سَلَبَهُ ، فأمَّن عبد الله بن جحش على دعائي، ثم قال: اللهم ارزقني رجلًا شديد حَرَدُهُ ، شديدًا بأسه، أقاتله فيك ويقاتلني، ثم يأخذني فيجدع - يقطع - أنفي وأذني، فإذا لقيتك غدًا قلت: فيم جُدِعَ أنفك وأُذُنكَ؟ .. فأقول: فيك وفي رسولك، فتقول: صدقت، قال سعد بن أبي وقاص: لقد كانت دعوة عبد الله بن جحش خيرًا من دعوتي، فقلد رأيتُهُ آخر النهار، وقد قُتِلَ ومُثِّلَ به، وإن أنفه وأذنه لمعلقتان على شجرة بخيط[٢].

عن سعيد بن المسيب قال: قال عبد الله بن جحش: اللهم إني أقسم عليك أن ألقى العدو غدا فيقتلوني ويجدعوا أنفي وأذني ثم تسألني بما ذاك فأقول فيك. قال سعيد بن المسيب: إني لأرجو أن يبَرَّ الله قسمه كما بر أوله[٣].

---

(١) حَرَدُهُ : غضبه وثورته .

(٢) صفة الصفوة (١/ ١٥٩) بتصرف.

(٣) رواه الحاكم (٣/ ١٩٩ - ٢٠٠) وقال: صحيح على شرط الشيخين لولا إرسال فيه وقال الألباني ولكن له شاهد موصول.

ودارت رحى الحرب، وسارع عبد الله بن جحش إلى المعركة خلف خاله حمزة بن عبد المطلب يصول ويجول، ويقاتل الأعداء بشدة وبأس، وهو عازم على الشهادة، وكادت قريش أن تنهزم لولا أن غادر الرماة مواقعهم في الجبل هابطين إلى الميدان ليجمعوا الأموال والأسلاب . وهناك تغير وجه المعركة، فاستشهد عدد كبير من المسلمين، وفي هذه الأثناء كان عبد الله يضرب بسيفه كل من يقابله من المشركين حتى لقيه أبو الحكم بن الأخنس بن شريق، فصوَّب إلى عبد الله ضربة قاضية خرَّ شَهيدًا[1] بدمائه الزكية الطاهرة، وكان له من العمر حين استشهد بضع وأربعون سنة[2].

هذه صورة للوجولة الفارسة التي اصطلم بها الكفر أول المعركة وآخرها فماد أمامها، واضطربت من تحت أقدامه الأرض، فما ربح شيئًا في بدايه القتال، ولا انتفع بما ربح آخره.

وهذا اللون من البطولة مدفون تحت جدران التاريخ الإسلامي القائم إلى اليوم. وما يقوم للإسلام صرح، ولا ينكشف عنه طغيان، إلا بهذه القوى المذخورة المضغوطة في أفئدة الصديقين والشهداء. مَنْ سر هذا الإلهام؟ مَنْ مشرق هذا الضياء؟ مَنْ مبعث هذا الاقتدار؟ إنه محمدًا ﷺ ، إنه هو الذي ربى ذلكم الجيل الفذ، ومن قلبه الكبير أترعت هذه القلوب، تفانيًا في الله، وإيثارًا لما عنده[3].

ولما انتهت غزوة أُحد وقف الحبيب ﷺ على عبد الله بن جحش، فحزن عليه حزنًا شديدًا وأمر بدفنه مع حمزة بن عبد المطلب في قبر واحد.

وكان سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه لا ينسى صديقه في الدعاء والجهاد عبد الله بن جحش يذكره دائما ، ويتعهد زيارته وزيارة شهداء أُحد دائمًا، ويَحُضُّ أصحابه على زيارتهم ويقول: ألا تُسَلِّمُون على قوم يَرُدُّونَ عليكم؟! ، وفي سفح أحد يرقد

(١) الروض الأنف للسهيلي (٣/ ١٧٩).
(٢) صفة الصفوة (١/ ٣٨٦).
(٣) فقه السيرة للغزالي (ص٣٠١ - ٣٠٢) بتصرف.

عبد الله بن جحش رضي الله عنه مثالاً للشجاعة والفداء ورمزًا للبطولة، وقد كان من الذين قال الله فيهم: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا﴾ [الأحزاب:٢٣].

ورحل عبد الله ليجمعه الله في الجنة بحبيبه وقرة عينه محمد بن عبد الله ﷺ ولينعم بصحبته في جنات النعيم التي فيها ما لا عينٌ رأت ولا أُذن سمعت ولا خطر على قلب بشر.

فرضي الله عنه وعن سائر الصحابة أجمعين، اللهم ألحقنا بالصالحين. واجعلنا من ورثة جنة النعيم. اللهم أبرم لهذه الأمة أمر رشد يعز فيه أهل الطاعة ويذل فيه أهل المعصية يا جواد يا كريم، اللهم انصر الإسلام وأهله واخذل الشرك وأهله، اللهم اغفر لنا ذنوبنا وإسرافنا في أمرنا اللهم اختم بالصالحات أعمالنا، وقوموا إلى صلاتكم.

كعب بن مالك رضي الله عنه

إن الحمد لله نحمده، ونستعينه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مُضل له، ومن يُضلل فلا هادي له ، وأشهد أن لا إله إلَّا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾[آل عمران:١٠٢].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا﴾ [النساء:١].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ٧٠ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب:٧٠، ٧١].

أما بعد:

فإن أصدقَ الحديثِ كتابُ الله، وخيرَ الهدي هديُ محمد ﷺ، وشرَّ الأمورِ محدثاتُها، وكلَّ محدثةٍ بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار.

أيها الأحبة في الله: حديثنا اليوم بإذن الله عن الصحابي الجليل كعب بن مالك رضي الله عنه في الخطبة الأولى.

عباد الله: ما أجمل التوبة حينما تخرج من قلب صادق عرف الله، فأحبه وأخلص النية لله - جل وعلا - فلقد دعانا الله للتوبة، فقال - جل وعلا - ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوۡبَةٗ نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمۡ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَيُدۡخِلَكُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ يَوۡمَ لَا يُخۡزِي ٱللَّهُ ٱلنَّبِيَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥۖ نُورُهُمۡ يَسۡعَىٰ بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَبِأَيۡمَٰنِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتۡمِمۡ لَنَا نُورَنَا وَٱغۡفِرۡ لَنَآۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ [التحريم:٨].

وقال تعالى: ﴿ وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ [النساء: ١١٠].

وقال تعالى: ﴿ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ [الفرقان: ٧٠].

وأخبر الحبيب ﷺ أن الله يفرح بتوبة عبده المؤمن.

قال ﷺ: «لله أشد فرحًا بتوبة عبده حين يتوب إليه من أحدكم كان على راحلته بأرض فلاة، فانفلتت منه وعليها طعامه وشرابه فأيس منها فأتى شجرة فاضطجع في ظلها قد أيس من راحلته، فبينما هو كذلك إذ هو بها قائمة عنده، فأخذ بخطامها ثم قال- من شدة الفرح -اللهم أنت عبدي وأنا ربك.. أخطأ من شدة الفرح »[١].

وقال الله - جل وعلا -: «يا ابن آدم إنك ما دعوتني ورجوتني غفرت لك على ما كان منك ولا أبالي يا ابن آدم لو بلغت ذنوبك عنان السماء ثم استغفرتني غفرت لك ولا أبالي، يا ابن آدم لو أنك أتيتني بقراب الأرض خطايا - أي بقرب ما يملأ الأرض من الخطايا ثم لقيتني لا تشرك بي شيئا لأتيتك بقُرابها مغفرة »[٢].

ونحن إذا ذكرنا التوبة فلا نستطيع بحال من الأحوال أن ننسى كعب بن مالك رضي الله عنه إنه كعب بن مالك الخزرجي العقبي الأحدي.

شاعر رسول الله ﷺ وصاحبه، وأحد الثلاثة الذين خُلِّفُوا - في غزوة تبوك - فتاب الله عليهم.

وقبل كانت كنيته في الجاهلية: أبا بشير.

وقال ابن أبي حاتم: كان كعب من أهل الصُّفَّة. وذهب بصره في خلافة معاوية[٣].

---

(١) متفق عليه وانظر صحيح الجامع (٥٠٣٣).

(٢) رواه الترمذي والضياء عن أنس، صحيح الجامع (٤٣٣٨).

(٣) الجرح والتعديل (٧ / ١٦٠ - ١٦١).

وقد ذكره عُروة في السبعين الذين شهدوا العقبة[١].

أسلم مُبكرًا وامتلأ قلبه حبًّا لله ولرسول الله ﷺ واستعمل قدرته على الشعر في الدعوة إلى الله - عز وجل.

ومن مناقب كعب بن مالك رضي الله عنه، إسلام قبيلة لما سمعت بيتًا من شعره رضي الله عنه.

قال ابن سيرين: كان شعراء أصحاب رسول الله ﷺ: حسان بن ثابت، وعبد الله بن رواحة، وكعب بن مالك.

قال عبد الرحمن بن كعب، عن أبيه: أنه قال: يا رسول الله، قد أنزل الله في الشعراء ما أنزل. قال: «**إن المجاهد، مجاهد بسيفه ولسانه، والذي نفسي بيده « لكأنما » ترمونهم به نُضح النَّبل**»[٢].

قال ابن سيرين: أما كعبٌ، فكان يذكر الحرب، يقول: فعلنا ونفعل، ويتهددهم. وأما حسان، فكان يذكر عيوبهم وأيامهم. وأما ابن رواحة: فكان يُعَيِّرهم بالكفر.

وقد أسلمت دوس فَرَقًا - خوفًا - من بيت قاله كعبٌ:

نُخَيِّرُها ولو نطقتْ لقالت ∴ قواطعُهُن دوسًا أو ثقيفا[٣]

وقوله «نخيرها» الضمير يعود إلى السيوف في البيت قبله وهو:

قضينا من تهامة كل ريب ∴ وخيبر ثم أجمنا السيوفا[٤]

قالها كعب حين فرغ النبي ﷺ من حنين، وأجمع المسير إلى الطائف.

---

(١) السير للإمام الذهبي (٢ / ٥٢٣ - ٥٢٤).

(٢) أخرجه ابن عبد الرزاق في المصنف (٢٠٥٠٠) وعنه أحمد (٦/ ٣٨٧). من طريق معمر، عن الزهري، عن عبد الرحمن بن كعب بن مالك، عن أبيه، وقال الأرنؤوط: وهذا إسناد صحيح.

(٣) أسد الغابة (٤/ ٤٨٤)، والإصابة (٨/ ٣٠٥).

(٤) أي: نعطيها الخيرة، ولو نطقت لاختارت أن نحارب دوسا أو ثقيفًا. هما من قصيدة أوردها ابن هشام في السيرة (٢/ ٤٧٩، ٤٨٠).

وعن جابر: أن رسول الله ﷺ ما نسي ربُّكَ لك - وما كان ربك نسيًا - بيتًا قُلْتَهُ. قال: ما هو؟ ، قال: أنشده يا أبا بكر ، فقال:

زعمت سخينة [١] أن ستغلب ربها ∴ وليغلبن مغالب الغلاب [٢]

فما أعظمها من منقبة عظيمة وضعها النبي ﷺ على جبين كعب بن مالك كأنها تاج طمس ضوؤه ضوء الشمس والقمر.

وعن ابن إسحاق، قال: آخى رسول الله ﷺ بين طلحة بن عبيد الله، وكعب بن مالك، وقيل: بل آخى بين كعب والزبير.

وعن هشام بن عروة، عن أبيه: أن رسول الله ﷺ آخى بين الزبير وكعب ابن مالك، فارتث كعب يوم أحد، فجاء به الزبير، يقوده، ولو مات يومئذ، لورثه الزبير فأنزل الله: ﴿وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾ [الأنفال:٧٥] [٣]

وأما جهاد كعب رضي الله عنه في سبيل الله فلقد أبلى في ذلك يوم أُحد بلاءً حسنًا ، وبذل نفسه خالصة لله - جل وعلا.

قال رضي الله عنه: لما انكشفنا يوم أُحد، كنت أول من عرف رسول الله ﷺ، وبشرت به المؤمنين حيًا سويًا، وأنا في الشِّعب. فدعا رسول الله ﷺ كعبًا بلأمته - وكانت صفراء - فلبسها كعبٌ، وقاتل يومئذ قتالا شديدًا، حتى جُرِحَ سبعة عشر جُرْحًا[٤].

قلت ما سمعتم وأستغفر الله لي ولكم ولسائر المسلمين من كل ذنب فاستغفروه، إنه هو الغفور الرحيم.

---

(١) والسخينة طعام من دقيق وسمن أو دقيق وتمر، وكانت قريش تكثر من أكلها فعيرت به حتى لقبوا (سخينة).

(٢) الخبر أورده صاحب كنز العمال (٣/ ٥٨١) ونسبه لابن منده وابن عساكر.

(٣) قال الأرنؤوط: رجاله ثقات، وأورده ابن كثير بنحوه (٣/ ٤٦٨).الارتثاث: أن يحمل الجريح من المعركة وهو ضعيف قد أثخنته الجراح.

(٤) سيرة ابن هشام (٢/ ٤٣).

الحمد لله ولي الصالحين ولا عدوان إلا على الظالمين، والعاقبة للمتقين، والمذلة والخسران لأعداء الدين من المشركين والكافرين والمنافقين، وأشهد أن لا إله إلَّا الله وحده لا شريك لهُ وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله صلى الله عليه وعلى آله وصحابته أجمعين.

أما بعد:

أما الحديث عن تخلف كعب بن مالك ﷺ عن غزوة تبوك وتوبة الله عليه بسبب صدقه فقد ترامت الأنباء إلى النبي ﷺ وأصحابه بالمدينة أن الروم تستعد للقيام بغزوة حاسمة للقضاء على الإسلام والمسلمين، فأراد النبي ﷺ أن يخرج إليهم قبل أن يأتوا إلى المدينة.

قال ابن كثير - رحمه الله -: ولما أنزل الله عز وجل على رسول الله ﷺ: ﴿ قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُوا۟ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴾ [التوبة:٢٩].

ندب رسول الله ﷺ أهل المدينة ومن حولهم من الأعراب إلى الجهاد، وأعلمهم بغزو الروم، وذلك في رجب سنة تسع[1]، وهذه الغزوة هي التي تسمى بغزوة العُسرة، للظروف الشديدة التي خرج فيها رسول الله ﷺ من شدة الحر، ومن القحط الذي كان في المدينة في هذا الوقت، ومن السفر الطويل الذي ينتظره، فانتدب النبي ﷺ الناس للبذل، فقال ﷺ: «**من جهز جيش العُسرة فله الجنة**».

فجاء عثمان ﷺ بألف دينار فصبها في حجر النبي، والنبي ﷺ يقول: «**ما ضَرَّ ابن عفان ما عمل بعد اليوم**»[2].

وجعل فقراء المسلمين يتصدقون بما يجدونه وإن كان يسيرا، والمنافقون يسخرون

---

(١) الفصول في اختصار سيرة الرسول ﷺ لابن كثير (١٨٧).

(٢) رواه البخاري مختصرا (٥/ ٤٧٧) الوصايا.

من هؤلاء وهؤلاء فيتهمون أهل الغنى والبذل العظيم بالرياء والسمعة، والفقراء بأن الله عن يسير صدقتهم لغني.

وفضحهم الله عز وجل في سورة التوبة التي تسمى بالفاضحة، حيث إنها فضحت المنافقين وأظهرت فساد نياتهم وسوء أقوالهم وأعمالهم، فقال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يَلْمِزُونَ ٱلْمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [التوبة:٧٩].

ففي مثل هذه الحال القاسية والشدائد المتتابعة يظهر صدق الصادقين، وإيمان المؤمنين ونفاق المنافقين كما ظهر النفاق يوم أُحد ويوم الخندق، وامتدح الله - عز وجل - في نهاية «سورة التوبة» (التي نزل أكثرها في هذه الغزوة) المؤمنين الصادقين، فقال تعالى: ﴿ لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِىِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِى سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ [التوبة:١١٧].

وتاب الله - عز وجل - كذلك على الثلاثة من المؤمنين الصادقين الذين لم يتخلفوا نفاقًا، وصدقوا الله ورسوله في أنهم لم يكن لهم أعذار تبيح لهم التخلف، فكان الصدق سبب نجاتهم، وهم كعب بن مالك، ومرارة بن الربيع العمري، وهلال ابن أمية الواقفي، وكعب ممن شهد العقبة - ومرارة وهلال بدريان سبقت لثلاثتهم السعادة، وسبقوا إلى الإيمان والعبادة.

أما المنافقون فسلكوا مسالك شتَّى، فمنهم من اعتذر قبل الخروج وتعلل بالعلل الباطلة، قال تعالى حاكيًا عنهم: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ٱئْذَن لِّى وَلَا تَفْتِنِّىٓ أَلَا فِى ٱلْفِتْنَةِ سَقَطُوا۟ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ [التوبة:٤٩].

فكانوا يظهرون خلاف بواطنهم وفضح الله عز وجل - بواطنهم فقال تعالى: ﴿ فَرِحَ ٱلْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ وَكَرِهُوٓا۟ أَن يُجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَالُوا۟ لَا تَنفِرُوا۟ فِى ٱلْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَّوْ كَانُوا۟ يَفْقَهُونَ ﴾ [التوبة:٨١].

فكان الدافع الحقيقي للتخلف هو أنهم بخلوا بالبذل في سبيل الله - عز وجل - وذلك لفقدهم الإيمان الصادق والرغبة فيما عند الله عز وجل من الثواب العظيم والمقام الكريم.

والدافع إلى البذل والجهاد هو الإيمان والاحتساب، قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾ [الحُجرات:١٥] ومن هؤلاء من خرج مع رسول الله ﷺ وقد بالغ في الإيذاء والاستهزاء برسول الله ﷺ وخيار أصحابه كما قال تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ۚ قُلْ أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ ۚ إِن نَّعْفُ عَن طَآئِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَآئِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ مُجْرِمِينَ﴾ [التوبة٦٥: ٦٦].

وفي مقابلة هؤلاء المنافقين ظهر أيضًا صدق الصادقين وإيمان المؤمنين، فمن هؤلاء النفر الكرام الذين اشتاقوا إلى الجهاد وصحبة سيد العباد، ولكنهم من الفقر بحيث إنهم لا يستطيعون أن يجهزوا أنفسهم للغزو وليس عندهم ما يحملهم فعادوا كما وصفهم الله عز وجل أبلغ وصف وأزكاه: ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا۟ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩١﴾ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوا۟ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا۟ مَا يُنفِقُونَ﴾ [التوبة٩١: ٩٢].

وهم لا شك الذين عناهم رسول الله ﷺ بقوله وهو عائد من تبوك: «**لقد خلفتم بالمدينة رجالًا ما قطعتم واديًا ولا سلكتم طريقًا إلا أشركوكم في الأجر، حبسهم المرض**»[1].

---

(١) رواه أحمد (٣/ ٣٠)، ومسلم (١٣/ ٥٧) الإمارة، وقال النووي: وفي هذا الحديث فضيلة النية في الخير، وأن من نوى الغزو وغيره من الطاعات، فعرض له عذر منعه حصل له ثواب نيته وأنه كلما أكثر من التأسف على فوات ذلك وتمنى كونه مع الغزاة ونحوهم كثر ثوابه والله أعلم. النووي على صحيح مسلم (١٣/ ٥٧).

اللهم ارض عن الخلفاء الراشدين المهديين أبي بكر وعمر وعثمان وعلي وعلى سائر الصحابة والتابعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين ، اللهم أبرم لهذه الأمة أمر رُشد يُعز فيه أهل الطاعة ويُذل فيه أهل المعصية يا جواد يا كريم، اللهم انصر الإسلام وأهله واخذل الشرك وأهله، اللهم تقبل منا إنك أنت السميع العليم وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم وقوموا إلى صلاتكم.

كعب بن مالك رضي الله عنه

إن الحمد لله نحمده، ونستعينه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مُضل له ، ومن يُضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلَّا الله وحده لا شريك له، وأشهد أنَّ محمدًا عبده ورسوله.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾[آل عمران:١٠٢].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا﴾ [النساء:١].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ٧٠ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب:٧٠، ٧١].

أما بعد:

فإن أصدقَ الحديثِ كتابُ الله، وخيرَ الهدي هديُ محمدٍ ﷺ، وشرَّ الأمورِ محدثاتُها، وكلَّ محدثةٍ بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار.

أيها الأحبة في الله: حديثنا اليوم بإذن الله في الخطبة الثانية عن الصحابي الجليل كعب بن مالك رضي الله عنه .

عباد الله: بتلك الكلمات العذبة الندية استقبل النبي ﷺ كعب بن مالك يوم أن أنزل الله توبته عليه من فوق سبع سماوات.

وما أجمل أن نتعرف على تلك القصة من صاحبها المبارك كعب بن مالك رضي الله عنه قال كعب: لم أتخلف عن رسول الله ﷺ في غزوة غزاها إلَّا في غزوة تبوك غير أني كنت تخلفت في غزوة بدر. ولم يعاتب أحدًا تخلف عنها، إنما خرج رسول الله ﷺ يريد عير

قريش حتى جمع الله بينهم وبين عدوهم على غير ميعاد، ولقد شهدت مع رسول الله ﷺ ليلة العقبة حين تواثقنا على الإسلام وما أحب أن لي بها مشهد بدر، وإن كانت بدر أَذْكَر في الناس منها، كان من خبري أني لم أكن قط أقوى ولا أيسر حين تخلفت عنه في تلك الغزاة - تبوك - والله ما اجتمعت عندي قبله راحلتان قط حتى جمعتهما في تلك الغزوة التي غزاها رسول الله ﷺ في حر شديد، واستقبل سفرًا بعيدًا ومفازًا، وعدوا كثيرًا فجلى للمسلمين - وضَّح - ليتأهبوا أهبة غزوهم، فأخبرهم بوجهه الذي يريد، والمسلمون مع رسول الله ﷺ كثير ولا يجمعهم كتاب - حافظ يريد الديوان - قال كعب: فما يريد رجل أن يتغيب إلا ظن أن سيخفى له ما لم ينزل فيه وحي الله، وغزا رسول الله ﷺ تلك الغزوة حين طابت الثمار والظلال وتجهز رسول الله ﷺ والمسلمون معه فطفقت أغدو لكي أتجهز معهم، فأرجع ولم أقض شيئا فأقول في نفسي: أنا قادر عليه. فلم يزل يتمادى بي حتى اشتد بالناس الجد فأصبح رسول الله ﷺ والمسلمون معه ولم أقض من جهازي شيئًا، فقلت: أتجهز بعده بيوم أو يومين ثم ألحقهم، فغدوت بعد أن فصلوا لأتجهز، فرجعت ولم أقض شيئًا، ثم غدوت ثم رجعت ولم أقض شيئًا فلم يزل بي حتى أسرعوا وتفارط الغزو. وهممت أن ارتحل فأدركهم وليتني فعلت فلم يقدر لي ذلك. فكنت إذا خرجت في الناس بعد خروج رسول الله ﷺ فطفت فيهم أحزنني أني لا أرى إلا رجلا مغموصًا عليه النفاق أو رجلًا ممن عذر الله من الضعفاء. ولم يذكر في رسول الله ﷺ حتى بلغ تبوك فقال وهو جالس في القوم بتبوك: «ما فعل كعب؟» فقال رجل من بني سلمة: يا رسول الله حبسه برداه ونظره في عطفه. فقال: معاذ بن جبل: بئس ما قلت، والله يا رسول الله ما علمنا عليه إلا خيرًا. فسكت رسول الله ﷺ قال كعب بن مالك ؟ فلما بلغني أنه توجه قافلاً حضرني همي،وطفقت أتذكر الكذب وأقول بماذا أخرج من سخطه غدًا؟ واستعنت على ذلك بكل ذي رأي من أهلي. فلما قيل: إن رسول الله ﷺ قد أظل قادما زاح عني الباطل، وعرفت أني لن أخرج منه أبدًا بشيء فيه كذب، فأجمعت صدقه وأصبح رسول الله ﷺ قادمًا، وكان

إذا قدم من سفر بدأ بالمسجد، فيركع فيه ركعتين ثم جلس للناس،فلما فعل ذلك جاءه المخلفون فطفقوا يعتذرون إليه ويحلفون له - وكانوا بضعة وثمانين رجلًا - فقبل منهم رسول الله ﷺ علانيتهم وبايعهم واستغفر لهم، ووكل سرائرهم إلى الله. فجئته فلما سلمت عليه تبسم تبسُّم المغضب ثم قال: «تعال» فجئت أمشي حتى جلست بين يديه فقال لي: «ما خلفك؟ ألم تكن قد ابتعت ظهرك؟» فقلت: بلى، إني والله لو جلست عند غيرك من أهل الدنيا لرأيت أن سأخرج من سخطه بعذر، ولقد أعطيت جدلًا - مهارة في الكلام - ولكني والله لقد علمت لئن حدثتك اليوم حديث كذب ترضى به عني ليوشكنَّ الله أن يسخطك عليَّ، ولئن حدثتك حديث صدق تجد عليَّ فيه إني لأرجو فيه عفو الله، لا والله ما كان لي من عذر، والله ما كنت قط أقوى ولا أيسر مني حين تخلفت عنك. فقال رسول الله ﷺ: «أما هذا فقد صدق، فَقُم حتى يقضي الله فيك» فقمت وثار رجال من بني سلمة فاتبعوني فقالوا: والله ما علمناك كنت أذنبت ذنبًا قبل هذا، ولقد عجزت أن لا تكون اعتذرت إلى رسول الله ﷺ بما اعتذر إليه المتخلفون، قد كان كافيك ذنبك استغفار رسول الله ﷺ لك. فوالله ما زالوا يؤنبونني حتى أردت أن أرجع فأكذب نفسي، ثم قلت لهم: هل لقي هذا معي أحد؟ قالوا: نعم رجلان. قالا مثلما قلت، فقيل لهما ما قيل لك. فقلت منهما؟ قالوا: مرارة بن الربيع العمري، وهلال بن أمية الواقفي فذكروا رجلين قد شهدا بدرًا فيهما أسوة، فمضيت حين ذكروهما لي، ونهى رسول الله ﷺ المسلمين عن كلامنا أيها الثلاثة من بين من تخلف عنه. فاجتنبنا الناس وتغيروا لنا حتى تنكرت في نفسي الأرض فما هي التي أعرف، فلبثنا على ذلك خمسين ليلة، فأما صاحباي فاستكانا وقعدا في بيوتهما يبكيان، وأما أنا فكنت أشب القوم وأجلدهم، فكنت أخرج فأشهد الصلاة مع المسلمين، وأطوف في الأسواق ولا يكلمني أحد، وآتي رسول الله ﷺ فأسلم عليه وهو في مجلسه بعد الصلاة فأقول في نفسي: هل حرك شفتيه برد السلام علي أم لا؟، ثم أصلي قريبًا منه فأسارقه النظر، فإذا أقبلت على صلاتي أقبل إليَّ، وإذا التفت نحوه أعرض عني. حتى إذا طال عليَّ ذلك من

جفوة الناس مشيت حتى تسورت جدار حائط أبي قتادة، وهو ابن عمي وأحب الناس إليَّ فسلمت عليه فوالله ما رد علي السلام فقلت: يا أبا قتادة أنشدك بالله هل تعلمني أحب الله ورسوله؟ فسكت فعدت له فنشدته فسكت، فعدت له فنشدته فسكت، فعدت له فنشدته، فقال: الله ورسوله أعلم. ففاضت عيناي وتوليت حتى تسورت الجدار قال: فبينا أنا أمشي بسوق المدينة إذا نبطي من أنباط أهل الشام ممن قدم بالطعام يبيعه بالمدينة يقول: من يدل على كعب ابن مالك؟ فطفق الناس يشيرون له.

قلت ما سمعتم وأستغفر الله لي ولكم ولسائر المسلمين من كل ذنب فاستغفروه إنه هو الغفور الرحيم.

الحمد لله ولي الصالحين، والعاقبة للمتقين من الموحدين الصادقين، ولا عدوان إلا على الظالمين من المشركين والكافرين والمنافقين الكاذبين، واشهد أن لا إله إلَّا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن نبينا محمد عبد الله ورسوله صلى الله عليه وعلى آله وصحابته أجمعين.

أما بعد:

يقول كعب بن مالك رضي الله عنه حتى إذا جاء في ذاك النبطي دفع اليَّ كتابًا من ملك غسان فإذا فيه: أما بعد، فإنه بلغني أن صاحبك قد جفاك - يقصد النبي ﷺ - ولم يجعلك الله بدار هوان ولا مضيعة، فالحق بنا نواسك. فقلت لما قرأتها: وهذا أيضا من البلاء، فتيممت بها التنور فسجرته بها حرقته حتى إذا مضت أربعون ليلة من الخمسين إذا رسول رسول الله ﷺ يأتيني فقال: إن رسول الله ﷺ يأمرُك أن تعتزل امرأتك. فقلت: أطلقها أم ماذا أفعل؟، قال: لا، بل اعتزلها ولا تقربها، وأرسل إلى صاحبيَّ مثل ذلك. فقلت لامرأتي: الحقي بأهلك فتكوني عندهم حتى يقضي الله في هذا الأمر. قال كعب: فجاءت امرأة هلال بن أمية رسول الله ﷺ فقالت:

يا رسول الله إن هلال بن أمية شيخ ضائع ليس له خادم، فهل تكره أن أخدمه؟ قال: «لا» ولكن لا يقربك قالت: إنه والله ما به حركة إلى شيء، والله ما زال يبكي منذ كان من أمره ما كان إلى يومه هذا. فقال لي بعض أهلي لو استأذنت رسول الله ﷺ في امرأتك كما أذن لامرأة هلال بن أمية أن تخدمه؟ فقلت: والله لا أستأذن فيها رسول الله ﷺ وما يدريني ما يقول رسول الله ﷺ إذا استأذنته فيها وأنا رجل شاب. فلبثت بعد ذلك عشر ليال حتى كملت لنا خمسون ليلة من حين نهى رسول الله ﷺ عن كلامنا، فلما صليت صلاة الفجر صبح خمسين ليلة وأنا عل ظهر بيت من بيوتنا، فبينا أنا جالس على الحال التي ذكر الله: قد ضاقت عليَّ نفسي وضاقت علي الأرض بما رحبت سمعت صوت صارخ أوفى على جبل «سلع» بأعلى صوته: يا كعب بن مالك أبشر. قال: فخررت ساجدًا وعرفت أن قد جاء فرج، وآذن رسول الله ﷺ بتوبة الله علينا حين صلى صلاة الفجر، فذهب الناس يبشروننا، وذهب قبل صاحبي مبشرون وركض إلى رجل فرسا، وسعى ساع من أسلم فأوفى على الجبل وكان الصوت أسرع من الفرس. فلما جاءني الذي سمعت صوته يبشرني نزعت له ثوبي فكسوته إياها ببشراه، والله ما أملك غيرها يومئذ واستعرت ثوبين فلبستهما، وانطلقت إلى رسول الله ﷺ فيتلقاني الناس فوجًا فوجًا يهنئوني بالتوبة يقولون: لتهنك توبة الله عليك. قال كعب: حتى دخلت المسجد فإذا رسول الله ﷺ جالس حوله الناس، فقام إليَّ طلحة بن عبيد الله يهرول حتى صافحني وهنأني، والله ما قام إليَّ رجل من المهاجرين غيره، ولا أنساها لطلحة، قال كعب: فلما سلمت على رسول الله ﷺ قال وهو يبرق وجهه من السرور: «**أبشر بخير يوم مَرَّ عليك منذ ولدتك أمك**» قال: قلت: أمن عندك يا رسول الله أم من عند الله؟ قال: «**لا، بل من عند الله**» وكان رسول الله ﷺ إذا سُرَّ استنار وجهه حتى كأنه قطعة قمر، وكنا نعرف ذلك منه. فلما جلست بين يديه قلت: يا رسول الله إن من توبتي أن أنخلع من مالي صدقة إلى الله وإلى رسوله ﷺ قال رسول الله ﷺ: «**أمسك عليك بعض مالك فهو خير لك**» قلت: فإني أمسك سهمي الذي بخيبر فقلت: يا رسول الله،

إن الله إنما نجاني بالصدق، وإن من توبتي أن لا أحدث إلَّا صدقًا ما بقيت. فوالله ما أعلم أن أحدًا من المسلمين أبلاه الله في صدق الحديث منذ ذكرت ذلك لرسول الله ﷺ إلى يومي هذا كذبًا وإني لأرجو أني يحفظني الله فيما بقيت، وأنزل الله على رسوله:

﴿ لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِى سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٧﴾ وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا۟ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓا۟ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [التوبة١١٧: ١١٨].

فوالله ما أنعم الله عليَّ من نعمة قط - بعد أن هداني للإسلام - أعظم في نفسي من صدقي لرسول الله ﷺ أن لا أكون كذبته فأهلك كما هلك الذين كذبوا، فإن الله قال للذين كذبوا حين أنزل الوحي شر ما قال لأحد، فقال الله تبارك وتعالى: ﴿ سَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ إِذَا ٱنقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا۟ عَنْهُمْ ۖ فَأَعْرِضُوا۟ عَنْهُمْ ۖ إِنَّهُمْ رِجْسٌ ۖ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٩٥﴾ يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا۟ عَنْهُمْ ۖ فَإِن تَرْضَوْا۟ عَنْهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾ [التوبة٩٥: ٩٦].

قال كعب: وكنا تخلفنا «أيها الثلاثة» عن أمر أولئك الذين قبل منهم رسول الله ﷺ حين حلفوا له فبايعهم واستغفر لهم وأرجأ رسول الله ﷺ أمرنا حتى قضى الله فيه، فبذلك قال الله: ﴿ وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا۟ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓا۟ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [التوبة: ١١٨].

وليس الذي ذكر الله مما خلفنا عن الغزو إنما هو تخليفه إيانا وإرجاؤه أمرنا عمن حلف له واعتذر إليه فقبل منه[1].

---

(١) أخرجه البخاري (٤٤١٨)، ومسلم (٢٧٦٩).

وهكذا تكون التوبة الصادقة التي لا يشوبها كذب ولا نفاق.

إنها التوبة التي تثمر المغفرة في الدنيا والرحمة في الآخرة، بل والنعيم المقيم الذي لا يزول ولا يفنى في جنات الخلود التي فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر.

وعاش كعب رضي الله عنه طول عمره تائبًا صادقًا مخبتًا عابدًا لله جل وعلا إلى أن نام على فراش الموت ورحل عن الدنيا ليلقى حبيبه ﷺ وأصحابه رضي الله عنهم في جنة الرحمن إخوانًا على سرر متقابلين.

فرضي الله عن كعب وعن سائر الصحابة أجمعين. اللهم أعز الإسلام والمسلمين وأذل الشرك والمشركين ودمر أعداءك أعداء الدين اللهم أبرم لهذه الأمة أمر رشد يعز فيه أهل الطاعة ويذل فيه أهل المعصية، اللهم من ولي أمر المسلمين ويسر لهم فيسر أمره وأصلح شأنه، ومن وُلِّي أمر المسلمين وشق عليهم فاشقق عليه ولا تجعل له في الأرض تمكينًا، ربنا اغفر لنا ذنوبنا وإسرافنا في أمرنا ، وقوموا إلى صلاتكم.